الباب العشرون

الفرس – كورش – كمبيز –

فتح الفرس للقسم الأعظم من بلاد المشرق المعروفة قديمًا

(١) مبادئ المملكة الفارسية:

حل الفرس في أوائل الغارة الآرية بالبلاد الواقعة شرقي عيلام، ثم امتدت أملاكهم من مصب نهر طاب في الغرب إلى بوغاز هرمز. واعلم أن أرضها التي إلى السواحل قاحلة لا ترويها الأنهار بالكفاية، ولا يصل من أنهارها إلى البحر إلا طاب وبندأمير وكوراب، وأما بقية الأنهر فتتجمع مياهها في قيعان الوديان فتتكون منها بحيرات كبيرة أو صغيرة بحسب الفصول الأربعة، وقد قسمت القبائل الفارسية البلاد التي فتحتها إلى جملة أقسام وهي باريتاسينه (بلاد الجبل) وماردیانه (مازندران) في الجبال وتوكانه على الساحل وكرمان في الغرب وبنوا فيها بعض قرى كبيرة أهمها فرسبوليس[1] وبازاركد.

وكانت هذه القبائل خاضعة لملوك من سلالة رجل اسمه أخيمينيس، وهو قائدهم أثناء الغارة، وقد انتزع فرع من هذه العائلة بلاد انشان من العيلاميين وجعلها إمارة، كان أسيادها تيسبس وكورش الأول، وكمبيز الأول يعترفون بسيادة الماديين مدة تقارب قرنًا من الزمان.

---

(١) هي الآن تشهبل منار؛ أي: الأربعون عمودًا وأطلالها قائمة حول مدينة اصطخر؛ بحيث إن كثيرين من العلماء يعتبرونها هي نفس اصطخر وهو وهمٌ.

(٢) كورش وهو كيكسرى (٥٥٨-٥٢٩) وفتوح بلاد ماداي (٥٤٩) وليديا (٥٤٦):

فلما جاء كورش الثاني (كيكسرى) ابن كمبيز (شكل ٢٠-١) نهض بالفرس من وهدة الخمول والانحطاط، وجعل لهم السيادة والسيطرة على آسيا، وقد تناقل القوم رواية تقضي بأنه من سلالة كياكسار، وأنه حفيد استياج (كيكاوس) من ابنته مندان؛ وذلك أن استياج رأى أحلامًا أزعجته؛ إذ أنبأته بشوكة الغلام في مستقبل الأيام، وأن قدره سيعلو على جميع الأنام فأراد أن يقتله عند ولادته فوكل بهذا الأمر أحد سادات بلاده واسمه أريج Harpage غير أن هذا الرجل اقتصر على ترك الغلام كورش في الغابات، فجاءت كلبة (على قول البعض) وزوجة أحد رعاة الملك (على قول الآخرين) وغذته وربته حتى كبر وترعرع، ولكن ذلك لم يرد في التاريخ الحقيقي، فإن مبلغ ما جاء فيه أن كورش ملك انشان حارب الماديين، فوقعت فتنة في جنود استياج وسلموا أميرهم هذا إلى الملك الجديد (٥٤٩) فكان في ذلك انتقال الملك من عائلة لعائلة من غير أن يكون في الحقيقة فتحًا أجنبيًّا، فحلت الدولة الفارسية محل الدولة المادية من غير أن يحدث اضطراب أو انقلاب.

ثم امتدت الدولة الفارسية بسرعة؛ فإن كورش ابتدأ بمقاتلة الليديين وكان أميرهم كيريسوس بن اليات يحكم عليهم منذ سنة ٥٦٢. وقد افتتح هذا الرجل أفسس وأزمير، وساد على جميع الأمم المتوطنة غربي نهر هاليس (قزيل إيرماق) وصار له في العالم كله صيت عظيم يُضرب به المثل إلى يومنا هذا من حيث الغنى والكرم[1] فأول ما شاع خبر سقوط استياج (كيكاوس) تحالف مع

(١) كما يضرب المثل عند الشرقيين بحال قارون.

أمم الشرق القديمة، فإن ظهور هذه الدولة الجديدة كان يهددهن كلهن فتحالف مع أماسيس ملك مصر ونابوناهيد ملك كلديا، بل ومع اللقدمونيين، وحينئذ آنس من نفسه قوة بمؤازرة هذه الشعوب له فبدأ بالقتال في ربيع سنة ٥٤٦، واجتاز نهر هاليس (قزل يرمق) واستحوذ على قلعة بتريا (واسمها الآن بوغاز كوي) لأنها كانت تشرف على البقعة التي لا بدَّ للفرس من اجتيازها لمقاتلته، ولم يتهيأ لكورش (كيكسرى) صد هذه الهجمات إلا في أواخر الصيف، فوقعت بينهما معركة بالقرب من نهر هاليس (قزل يرمق) ولم يتبين فيها الغالب من المغلوب، ولهجوم الشتاء رجع كريسوس إلى سرد (سرت) وصرف جنوده لمدة الشتاء، حاسبًا أن الفرس لا يهاجمونه قبل حلول الربيع.

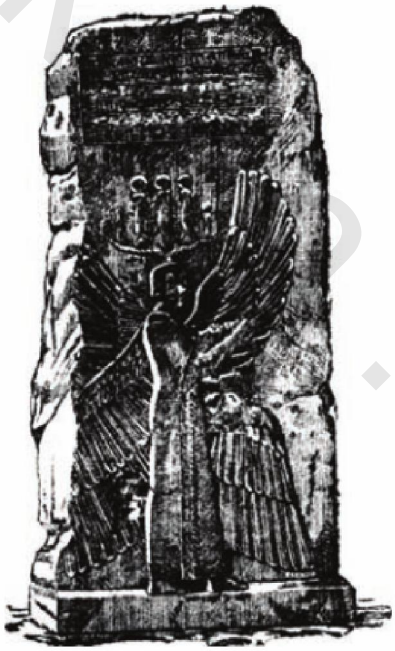

شكل ٢٠-١: الملك كورش وهو مصور في رسم بارز مرغاب

ولكن الحوادث لم تحقق هذا الحسبان؛ فإن الفرس والوا القتال في فصل الأمطار، وتقدموا في زحفهم حتى دخلوا إلى قلب ليديا، فباغتوا ملكها وهزموه في أول معركة؛ بحيث التجأ إلى التحصن في سرد (سرت) وبعث يستغيث بحلفائه ويستنجدهم عند الشدة.

وكانت المدينة مشهورة بأنها منيعة لا تُرام، فصدت هجمات الفرس مرات عديدة؛ ولكن اتفق ذات يوم أن أحد عساكر الحامية سقطت خوذته من أعلى القلعة إلى خارجها فنزل وأخذها، ثم عاد من الطريق الذي نزل منه، فأبصره أحد المحاصرين وسار على أثره حتى دخل القلعة مع نفر من رفقائه. وقد كانت المدينة قاومت مدة أربعة عشر يومًا (سنة ٦٤٥) وجاء في الرواية أن كريسوس حُكم عليه بالموت في وسط النار، ولكن هذه النار كانت بردًا وسلامًا عليه؛ إذ نجاه من هذا العذاب الإله أبولون الدلفي، فلذلك صار الرجل صديق الملك الذي فاز عليه ومستشاره الأمين. وقد وكل كورش قواده بإتمام فتح القطر فأخضع أريج بلاد ليكيا (صوف زاوية) والمدائن اليونانية التي كانت فازت في مقاومتها العائلة مرمناس، وخرج أهل فوكية من ديارهم، وبعد أن لاقوا في طريقهم جملة حوادث ووقائع ذهبوا إلى بلاد الغاليا وأسسوا فيها مدينة مرسيليا. أما سكان مدينة اكسانثوس فقد استماتوا في الدفاع عن وطنهم حتى هلكوا عن آخرهم ولم يرضوا بتسليم مدينتهم؛ بخلاف بقية البلاد فقد رضيت بما قدره الله عليها وقبلت سيادة الفرس.

(٣) فتوح آسيا العليا وبلاد كلديا وموت كورش وهو كيكسرى (٥٢٩):

وبينما كان أريج يتمم إخضاع آسيا الصغرى كان كورش (كيكسرى) يوالي المحاربات، ويشن الغارات في الأقاصي الشرقية من الهضبة الإيرانية فألحق

بمملكته بلاد بلخ[١] والمرج (بقطرياته ومرجياته) وبنى في بلاد الصُّغد جملة معاقل وحصون أهمها كوروبوليس أو كوريشاته (أي مدينة كورش) وهي مدينة حصينة تشرف على نهر سيحون، ولم يوقفه عن سيره إلى الشمال إلا مفاوز سيبيريا وفدافدها. وكانت الشاش آخر أمة أخضعها في نواحي المشرق. ولما غادرهم مر على بلاد آرية (سجستان والقسم الشرقي من خراسان) وأركوسيا (سستان) وعلى البلاد الواقعة فيما بين نهر كابل والسند؛ ولكن الظاهر أن صحارى جدروسيا (مكران) كانت أمام جنوده مانعًا منعهم عن التقدم والفتوح فاستغرق كورش في هذه المحاربات نحو خمس أو ست سنين (من سنة ٥٤٥ إلى سنة ٥٢٩) وترتب عليها اتساع مملكته ضعف ما كانت عليه، وبمجرد عودته نازل كلديا ففاز بسهولة على ملكها نابوناهيد، واستولى على بابل في سنة ٥٣٨ فخضعت له الأقاليم التابعة لها من غير حرب ولا قتال. وبذلك صارت تخوم الدولة الفارسية مجاورة لحدود المملكة المصرية.

وكان أماسيس ملك مصر هو الذي يظن فيه الكفاءة دون سائر ملوك العالم القديم لمناظرة الفارسيين في السطوة والشوكة، فتوقف كورش (كيكسرى) برهة عن مقاتلته ثم انثنى نحو الشرق واختفى بكيفية عجيبة غريبة (سنة ٥٢٩) وقد جاء في أشهر الروايات المتداولة أنه طلب أن يتزوج بالملكة طوميرس ملكة المسَّاجيت؛ ولكنها استخفت به واحتقرته؛ فأشهر عليها الحرب العوان وغلبها وأخذ منها ولدها، فقتل الولد نفسه لاستيلاء اليأس والقنوط عليه، ثم إن الدائرة دارت على كورش فانهزم أمامها بعد قليل من الزمان ومات في ميدان القتال، فبحثت طوميروس على جثته ووضعت هامته في زق قد ملأته من دم الناس، ثم أكثرت من سبابه ولعنه وقالت: «إني وإن

(١) اسمها القديم بقطر Bactres ومعروفة عند الأمم الشرقية بأنها «أم البلدان».

بقيت ممتعة بالحياة وبالنصر؛ ولكنك أعدمتني في الحقيقة؛ إذ خطفت مني ولدي بالحيلة والخديعة، فلأجرعنك الدم تجريعا»[١]. ثم توصل الفرس لأخذ جثة ملكهم ونقلوها إلى بازاركد ودفنوه في بساتين قصره باحتفال عظيم وإكرام بالغ.

(٤) كمبيز (سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٢٢) وفتوح مصر (سنة ٥٢٩):

وخلف كورش على مملكته كمبيز (ويسمى في كتب العرب قمباسوس، وفي كتب الفرس لهراسب) وهو أكبر أولاده، أما ابنه الثاني بردية (سمرديس) فقد أوصى له بالحكم على جملة ولايات، وكان قصده بذلك أن يمنع الخصومات التي تحصل في بلاد المشرق عادة عقيب انتقال الملك من يد إلى أخرى، ولكن أماني كورش (كيكسرى) ذهبت أدراج الرياح، فإن كمبيز

(١) عندي تاريخ بخط اليد مكتوب في ٢٩ بئونة سنة ١٥٧٦ قبطية، وهو المشهور بتاريخ يوسف بن كيربون العبراني، وقد رأيت فيه هذه القصة مسرودة بعبارة أخرى فأحببت الجمع بين الروايتين لتتم الفائدة. قال ما نصه: ولما بلغ كورش عن ملك النبطيم (أو الشطيم) أنه قد عصاه سار إليه وقتله وقتل كثيرًا من أصحابه، وهرب من بقي منهم مع امرأته وابنه، وكان اسمها يوليد، إلى حصون منيعة لهم فتحصنوا، فاحتال عليهم كورش حتى خرجوا من الحصون، فقتل كثيرًا منهم وقتل ابن ملكهم وهو ابن يوليد، وفتح حصونهم ومدنهم فاستباحها وجعل فيها ولاة من قِبله، وانصرف راجعًا إلى بلده فلما رأت يوليد أن ابنها قد قُتل وأن مُلكها قد زال لم يجد فيها الصبر موضعًا فحملت نفسها على الموت، وجمعت من بقي من رجالهم ومضت كمنت لكورش في الطريق مع أصحابها، وكان أكثر عساكره قد تقدمه راجعًا إلى بلاده، وبقي معه بعض أصحابه فكبسته يوليد بعسكرها، فقتل كورش وكل الذين معه من أصحابه، وأخذت رأسه فأخفتها وجعلتها يوليد في زق قد ملأته دمًا وقالت: «اشرب يا كورش وأرق من الدماء التي كنت تحب سفكها دائمًا بغير إشفاق ولا رحمة».

(لهراسب) بمجرد ارتقائه على سرير الملك ذبح أخاه بغاية التستر وكمال التبصر، حتى أن العامة لم تشعر بذلك، وظنت الأمة وأهل البطانة الملوكية أن بردية مسجون في أحد القصور القاصية ببلاد ماداي، وكانوا ينتظرون عودته بعد قليل من الزمان.

فلما تخلص كمبيز (لهراسب) من هذا النظير الذي كان يتوقع منه الخطر، رجع إلى إتمام ما شرع فيه أبوه، ولم يكن عليه إلا إخضاع مصر، ولما رأى أماسيس ملكها سقوط كريسوس توقع غارة الفارسيين على بلاده، فأخذ أهبته وأعد لهم ما استطاع من قوة، فعقد المحالفات الوثيقة مع كثير من الممالك الإغريقية، وقوى جيشه بكثير من المرتزقة، وحصن حدود الدلتا تحصينًا جيدًا. وكان بين ينيسوس آخر نقطة من جهة الشام وبين بيلوزة (الطينة) أول نقطة من جهة مصر بيداء يبلغ طولها تسعين كيلومترًا، ولا يكاد يوجد فيها الماء، وهي بحيث لا يتأتى لأية فرقة عسكرية أن تخترقها في أقل من ثلاثة أيام، ولكن فانيس الهلكارناسي أحد الرؤساء اليونانيين الذين في خدمة فرعون مصر خانه وخفر عهده، فسهَّل على كمبيز الاتفاق مع القبائل الرحالة النزالة المتوطنة بهذه البوادي، فتحصل منها على ترتيب منازل بهذه البيداء يكون فيها الماء الكافي للجنود.

فلما وصل الفارسيون إلى بيلوزة (الطينة) علموا أن أماسيس قد مات، وأن ابنه أبسماتيك الثالث خلفه على سرير الملك، فجاء هذا الملك الجديد بنفسه على رأس جيشه، وقاتل المغيرين أمام بيلوزة، وقد كان فانيس الخائن أبقى أولاده في مصر، فأحضرهم العساكر الكاريون واليونايون الذين كانوا تحت إمرته وذبحوهم أمام الجيش، ووضعوا دمهم في إناء كبير قد ملؤا نصفه بالنبيذ ثم شربوا هذا الخليط، وانقضوا على الأعادي مقتحمين نيران الوغى، وقد أخذت

منهم سورة الحمية مأخذها، ولكن ما جاء المساء حتى انثنت الصفوف المصرية وابتدأت الهزيمة، ولم يمضِ إلا أيام قليلة حتى تم إخضاع الدلتا كلها وفتحت منف أبوابها ووقع أبسماتيك وعائلته في قبضة الفاتح، ولم يحصل مقاومة قط في مصر العليا. وكذلك الليبيون وأهل برقة فإنهم لم ينتظروا وثوب الفرس عليهم لدفع الجزية بل أدوها وهم صاغرون فكان في سرعة سقوط هذه الدولة التي قاومت المشرق مدة قرون عديدة وفيما أصاب ملكها الذي ما لبث أن لبس ثوب الملك حتى خلعه وخلع منه عجب عجاب، وقد رقت لذلك قلوب جميع المعاصرين.

(٥) جنون كمبيز (لهراسب) وموته:

فكانت هذه الحوادث سببًا في وقوع العالم الشرقي القديم في قبضة رجل واحد يتصرف فيه كيف يشاء، ولم يقتصر كمبيز (لهراسب) على الوقوف عند هذا الحد بعد أن دمر الدولة العظيمة التي لم ينجُ غيرها من سطوة أبيه، بل أراد أن يسوق عساكره إلى تلك الأراضي الغربية التي انفرد الفينيقيون بالوصول إليها، وكان أمامه طريقان: أحدهما في الشمال فيما وراء بوغازات آسيا الصغرى؛ وهو طريق إفريقية وإيطاليا. والثاني في الجنوب؛ وهو طريق إيتوبيا وقرطاجة، فبدأ بمقاتلة إفريقية فإنه بعد أن استولى على تاج الفراعنة وحصل على محبة المصريين له وميلهم إليه لتلطفه واعتداله أرسل جيشين: أحدهما لمهاجمة قرطاجة، والثاني لمقاتلة ملوك نباتا، وأخذ في سيره طريق النيل؛ فأما الجيش الأول فقد سار إلى ليبيا (لوبيا) ولما بلغ منتصف الطريق الموصل إلى واحة آمون (سيوة) أثارت الريح الرمال على الأجناد، فدفنتهم عن آخرهم،

وأما الجيش الذي أرسله على إتيوبيا فقد بلغ نباتا، ولكن الصحراء التي بين نباتا ومروى صدته عن الاستمرار.

وقد فَقَدَ خلقًا كثيرين فكان لهذه الخيبة في المشروعين أسوأ تأثير على كمبيز (لهراسب) لأنه كان من عهد طفوليته عرضة لنوبات صرع شديد؛ فإذا جاءه الدور غاب عنه العقل وضاع منه الصواب، فلما حلت هذه المصائب اشتد مرضه لاستيلاء القنوط عليه؛ فازداد عدد النوبات وطالت مدتها حتى لقد طعن بخنجره الثور (أبيس) وأمر بإعدام كهنة الآلهة؛ فكرهته الأمة المصرية الشديدة التمسك بدينها كراهة ليس عليها من مزيد، وانحرفت قلوبها عنه إلى ما شاء الله، ثم تزوج بشقيقته وقتلها، ثم صوب سهمه نحو ولد بركزاسبس أحد مشيريه فمزق أحشاءه، ثم أمر بدفن اثني عشر رجلًا من وجوه فارس وهم أحياء، ثم إنه بارح مصر وقد مقته جميع الناس وسخطوا عليه، ولما وصل بجنوده إلى شمال الشام جاءه رسول وأعلمه بخلعه من الملك، وأمر الذين أطاعوه إلى هذا الوقت بأن يؤدوا البيعة ويمين الطاعة لبردية بن كورش، الذي نادت بارتقائه على سرير الملك فارس وماداي والأقاليم التي في قلب المملكة (يوليو سنة ٥٢٢) فهدَّ هذا الخبر قواه، وأذهب رشده في أول الأمر؛ ولكنه عزم على موالاة السفر بمن بقي مواليًا له من الجند، غير أنه جاءته النوبة واشتدت عليه فأجهز على نفسه بيده.

خلاصة ما تقدم:

(١) كان الفارسيون مقيمين في بلاد جبلية بعضها قليل الخصوبة، وهي ممتدة فيما بين عيلام وبوغاز هرمز، وكان الملوك الحاكمون عليهم من سلالة أخيمنيس، وقد تفرع من هذه العائلة فرع انتزع إقليم انشان من يد العيلاميين.

(٢) وخرج بهم كورش الثاني كيكسرى (سنة ٥٥٨-٥٢٨) ملك انشان من حيز الخمول والانحطاط إلى ذرى المجد والرفعة، وضرب استياج كيكاوس الذي هو جده على ما قالته الرواية، ثم دمر المملكة المادية سنة ٥٤٩، ثم وجه عزيمته إلى ليديا وأخذ سرد (سرت) من ملكها كريسوس فجأة، ثم عهد إلى قواد جيشه بإتمام إخضاع آسيا الصغرى.

(٣) ثم حمل على المشرق وأخضع الأقسام الشرقية من هضبة إيران وهي بلخ والصغد (سنة ٥٤٥-٥٣٩) وجعلها تابعة لمملكته وانتصر على نابوناهيد وتمم خراب دولة الكلدانيين (سنة ٥٣٨)، ومات في حربه مع المسَّاجيت، وكان ذلك في سنة ٥٢٩.

(٤) وابتدأ كمبيز (لهراسب) حكومته بقتل أخيه بردية، ثم انقض على مصر فهزم أبسماتيك الثالث في بيلوزة (الطينة) واستحوذ على أرض مصر كلها (سنة ٥٢٥).

(٥) ثم جال بخاطره أن يتمم فتح إفريقية، وبعث جيشين: أحدهما على الأتيوبيين، وقد اضطر لأن يرجع القهقرى بعد أن وصل إلى نباتا. والثاني على قرطاجة، وقد ابتلعته رمال ليبيا عن آخره، فكانت هذه الخسائر سببًا في وقوعه في نوبات جنون شديد، ارتكب أثناءها أمورًا جعلته ممقوتًا مسخوطًا عليه عند الخاصة والعامة، وقد قتل نفسه عند عودته من مصر أثناء نوبة شديدة وقع فيها عندما علم بقيام فارس عليه تحت قيادة رجل كذاب سمى نفسه بردية (سنة ٥٢٢).